حول مُقرر عن الحضارة البشرية

حول
مُقرر عن الحضارة البشرية ومنجزاتها
في جامعة القدس المفتوحة

أنطلق في تعليقي على هذا المقرر من الاحتفاء بداية بوجوده بين المقررات في جامعة القدس المفتوحة، ومن تقدير الجهد الذي بُذل في وضعه، ومن استشعار الحاجة إلى مزيد من الحوار حوله. وأمهد لملاحظاتي، وأنا أُسهم في هذا الحوار، باستذكار الهدف الرئيسي من المقرر وطرح رأي في كيفية مقاربته ومعالجته.

حول الهدف من المقرر

إن الهدف الرئيسي لهذا المقرر بخاصة وبقية المقررات بعامة هو «تنمية الشخصية الإنسانية». وقد أوضح قسطنطين زريق في دراسته عن «التربية في المجتمع العربي» أن أهداف التربية هي واحدة.. لأنها مرتكزة على أصل ثابت هو الإنسان.. أينما ومتى وكيفما كان.. هذا الأصل هو أن الإنسان كائن ذو شخصية.. وأن الغاية التي يجب أن يسعى إليها هي تفتح هذه الشخصية ونموها واكتسابها الحرية والكرامة. وانتهى إلى القول «التربية العربية يجب أن تهدف إلى تنمية شخصيات أفراد المجتمع العربي لتتحرر من الفقر والمرض والجهل والهوى، ولتحقق كرامتها فتحقق للمجتمع العربي حريته وكرامته». وأذكر أنني بعد أن أوردتُ هذا الحديث في دراستي «في التربية» قلت «والحق أننا بمنظار تراثنا الحضاري نرى الإنسان كائناً ذا شخصية وهو خليفة في الأرض ﴿**إني جاعلٌ في الأرض خليفة**﴾، مكرم على غيره من المخلوقات ﴿**ولقد كرمنا بني آدم**﴾، ذا إرادة يختار ﴿**ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾، مفطور

على الخير ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله**﴾ ومهمة التربية هي إطلاق طاقاته في هذا الكون الذي سخره الله له، وتمكينه من تحكيم النظرة الشاملة في التعامل مع الأمـور، واعتماد مبادىء الشمول والتوحيد والتطور في سلوكه». ليقوم بإعمار كوكبنا الأرضي. ويوصلنا التأمل في هذا الهدف الرئيسي إلى أن «تنميـة الشخصية الإنسانية» تقتضي الربط بين «العلم والعمل والعمران». فالإنسان مخلوق يتعلم وقد علّمه الله بالقلم، وهو مدعو إلى أن يعمل الصالح ليقوم «العمران» الذي هو ما يعمر به المكان وتزدهر «الحضارة» التي هي «غاية العمران» عند علاّمتنا ابن خلدون بعد أن توجد «المدنية» من خلال الاجتماع الإنساني.

إذا نظرنـا في الهـدف الـرئيسي لهـذا المقـرر ونحن نضع نُصب أعيننا «تنمية الشخصية الإنسانية» من خلال الربط بين «العلم والعمل والعمران» نجد أن المقرر يجب أن يرمي إلى «تكوين نظرة كونية» تحكمها عقيدة ومفاهيم. وقد لفت نظر مؤرخي الأفكار ودارسي الحضارات «أن توافر هذه النظرة الكونية» كان أمراً ملازماً لكل نهضة «حققها مجتمـع إنسـاني»، كمـا أوردت في دراستي «عـروبـة وإسـلام وقضـايا المستقبـل»، ومن هؤلاء البرت شفاتيزر الذي قال في مقدمة كتابه فلسفة الحضارة «والـواقـع أن كل تقـدم إنسـاني يتـوقف على التقدم في نظريته في الكون، وعلى العكس نجد أن كل انحلال سببه انحلال مماثل في نظريته في الكون. وافتقارنا إلى حضـارة حقيقية مرجعـه إلى افتقارنا إلى نظرية في الكون». فهذا المقرر يستهدف توفير نظرة كونية حول «الكـون والعالم والإنسان» تعطي للحياة معنى حقيقياً وتحث على «العلم والعمـل والعمـران» وتـوازن بين أبعـاد الشخصية الإنسانية في إيمانها بعقيدة وانتمـائهـا لقـوم وانتسـابهـا للعالمين، وفي بنائها الجسدي وشوقها الروحي ونظرها العقلي ومزاجها الفني ومهاراتها العملية.

لا بد إذن لبلوغ هذا الهـدف الـرئيسي للمقـرر الـذي هو «تنمية الشخصية الإنسانية بالربط بين العلم والعمل والعمران وتوفير نظرة كونية تحث على الثلاثة معاً وتعطي للحياة معنى حقيقياً وتوازن بين أبعاد الشخصية الإنسانية»، من الانطلاق في

معالجته من عقيدة متماسكة لها مفاهيمها الأساسية الواضحة، ومن إدراك لمختلف دوائر انتماء هذه الشخصية الإنسانية في هويتها الواحدة، ولجوانبها الجسدية والروحية والعقلية والفنية والعملية، لتعمل على تفتح هذه الشخصية بإطلاق طاقات الإنسان وتوجيهها. لقد نبه دارسو الحضارات إلى حقيقة تلفت النظر في الاجتماع الإنساني هي دور العقيدة على صعيد الفرد والمجتمع في قيام الحضارات لكونها شرطاً لازماً لتفاعل الإنسان مع المكان والزمان. ولنا أن نستشهد هنا بما أعلنه شفاتيزر في كتابه انطلاقاً من هذه الحقيقة، فتحدث عن حقيقتين هما «أن طابع الحضارة أخلاقي في أساسه، وأن ثمة ارتباطاً وثيقاً بين الحضارة ونظريتنا في الكون». وكما أن العقيدة ضرورية لقيام الحضارة فإنها ضرورية في دراسة الحضارة والعمران البشري بعامة. فلا بد أن تكون موجودة في «روح المنهج» ومتوافرة قبل ذلك فيما أسماه محمود محمد شاكر في «ما قبل المنهج» في كتابه «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، فرأس كل ثقافةٍ هو الدين بمعناه العام، والذي هو فطرة الإنسان، أي دين كان ـ أو ما كان في معنى الدين ـ وبقدر شمول هذا الدين لجميع ما يكبح جموح النفس الإنسانية ويحجزها عن أن تزيغ عن الفطرة السوية العادلة، وبقدر تغلغله إلى اغوار النفس تغلغلاً يجعل صاحبها قادراً على ضبط الأهواء الجائرة ومريداً لهذا الضبط. . تكون قوة العواصم التي تعصم صاحبها من كل عيب قادح في مسيرة «ما قبل المنهج» ثم في مسيرة «المنهج» الذي ينشعب من شطره الثاني وهو شطر التطبيق». وتتفاعل هذه العقيدة مع «لغة» الأمة وثقافتها لإيجاد ما يسميه محمود شاكر «الأصل الأخلاقي» وهو «العامل الحاسم الذي يمكن لثقافة الأمة بمعناها الشامل أن تبقى مترابطة تزداد على الأيام تماسكاً».

إن وضوح الهوية من خلال إدراك مختلف دوائر الانتماء فيها هو أيضاً ضروري في دراسة الحضارة والعمران البشري بعامة. والحق أن الصلة وثيقة بين ما يحيط بقضية الهوية من غموض وخلاف وتفاقم المشكلات في مجتمع ما، كما شرحت في كتابي «فكر وفعل» وكتابي «حوار ومطارحات» عند تناولي نظرية الانتماء، ويمكن

لهـذه المشكلات أن تحل حين يتحقق إدراك العلاقة بين دوائر الانتماء المختلفة فيزول أي تناقض مصطنع بينها.

رأي في كيفية مقاربة المقرر ومعالجته

حين نتأمل في كيفية مقاربة المقرر ومعالجته نجد أن علينا أن نأخذ في الاعتبار بداية أنه موضوع لدارسين هم في جيل الحداثة يعيشون تفتح شبابهم، وسيستفيد منـه أيضـاً آخرون يتابعون برامج الجامعة المفتوحة المرئية وما تصدره من كتب. وهؤلاء جميعـاً عرب من فلسـطين والأردن بخاصة والوطن العربي بعامة، ولسانهم عربي وهم ينتمـون إلى الحضـارة العـربية الإسـلامية ويدين بعضهم بالنصـرانية ومعظمهم بالإسلام. وعلينا ألا نغفل عن احتمال متابعة اليهود العرب الواقعين في أسر الصهيونية لهذا المقرر.

لا بد إذن في ضوء ما سبق أن تتم مقاربة المقرر بالوقوف على أرض الحضارة العربية الإسلامية واستحضار دوائر الانتماء في الهوية الواحدة، والعناية باللغة.

إذا أخذنا في الاعتبار أيضاً أن المقرر يرمي إلى تكوين نظرة كونية، فلا بد إذن من مقـاربتـه بعقيدة الإيمـان التي يفتقـدهـا أبناء أمتنا وبها قامت الحضارة العربية الإسـلامية. وتقوم هذه العقيدة على الإيمان بالله وكتبه ورسله، وتقول بمبدأ وحدة الأصل البشري ومبدأ كرامة الإنسان ومبدأ التنوع ومبدأ التعارف وصولاً إلى التعاون ومبـدأ لا إكـراه في الـدين، وهي تتضمن مفاهيم أساسية تتعلق بالإنسان والمكان والزمان، تؤكد على استخلاف الإنسان في الأرض وحريته في الاختيار وقدرته على الفعل.

إن معـالجـة المقـرر تقتضي من ثم التعريف بكوكبنا الأرضي ومكانه في هذا الكون الفسيح وبيئته الطبيعية من تضاريس ومياه وتراب ورياح وأمطار وحرارة، بحيث يتكـون حس جغـرافي يتفـاعل مع الحس التاريخي الذي يتكون من دراسة تاريخ الإنسان على ظهر هذا الكوكب.

وتقتضي هذه المعالجة الربط بين الجغرافيا والتاريخ فتبين أثر الجغرافيا في رسم خطوط رئيسة في أحداث التاريخ، هي بمثابة محددات، وتوضح أيضاً أهمية عامل الزمن. وقد سألت فاروق الباز المختص بالفضاء رأيه في نسبة ما يخصص للكون وللأرض في الكون ولبيئة الأرض في الجزء الخاص بالتعريف بكوكبنا من هذا المقرر، فأجاب بأنه يرى أن تكون عشرة وثلاثون وستون على التوالي.

لا بد أن تحرص معالجة المقرر على التعليل فتربط بين السبب والنتيجة سواء على مستوى العلاقة بين الإنسان والمكان أو على مستوى العلاقة بين الإنسان والإنسان في الاجتماع الإنساني، كما يجب أن تحرص المعالجة على بلورة مفاهيم أساسية في موضوع العمران والحضارة، وقد أوضح قسطنطين زريق في مطلع كتابه «في معركة الحضارة» أهمية هذا الأمر. ويحرص في تناول المقرر ككل على إبراز اتصال الحقب التاريخية عبر الزمان مع ملاحظة ما يطرأ من تطور وتغير في الأحوال، ليتم الكشف عن عامل الزمن وأثره، ولتتكون النظرة الشاملة.

إن اعتماد الاطلاع على النصوص التاريخية التي تتناول حقباً مضت أمر يجب الحرص عليه ليتم التعرف من خلال هذه النصوص على روح الفترة. ويكون في الاعتبار تتبع التفاعل الذي حدث بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارات الأخرى، وأن يتم ذلك بنظرة معاصرة، بحيث يُمكِّن المقرر دارسه المعاصر المنتمي لحضارته من أن يطل على العالم.

ملاحظات

يمكننا في ضوء ما سبق أن نقدم عدداً من الملاحظات إسهاماً في الحوار حول هذا المقرر

١ـ فيما يتعلق بالاسم حبذا أن يدخل فيه لفظ العمران البشري، لأن هذا اللفظ يشمل العمران البدوي والعمران الحضري الذي هو «الحضارة» بينما لا يشمل لفظ الحضارة العمران البدوي الذي هو جزء مهم من العمران وطور أساسي فيه. ومعلوم

أن هناك نظرة خاطئة حول العمران البدوي تشيع في أوساط حضارة الغرب تراه مقترناً «بالبربرية» أو «البدائية»، مع أنه يمثل استجابة فاعلة لتحدي البيئة الصحراوية القاسية كما قرر دارسو الحضارات ومنهم توينبي. ويمكن أن يكون اسم المقرر «العمران البشري والحضارة». كما أن إدخال هذا اللفظ يسهم في لفت النظر إلى إسهام حضارتنا العربية الإسلامية في تأسيس «علم العمران» على يد ابن خلدون في مقدمته الشهيرة، ويحيي استخدام هذا المصطلح بما له من دلالة موحية شرحها بقوله «إن الاجتماع ضروري للنوع الإنساني، وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من **اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم**، وهذا هو **معنى العمران** الذي جعلناه موضوعاً لهذا العلم». ومعلوم أن العمارة نقيض الخراب، وكم هو مفيد التذكير بها في عصرنا المهدد بخطر الفناء بأسلحة التدمير النووية وعالمنا الذي يعاني من أزمة قيم تفعل فعلها في تخريبه.

٢ـ فيما يتعلق بموضوعات المقرر حبذا أن يجري تعديل طفيف في صياغتها بحيث تصبح كما يلي:

١ـ في الكون والأرض والبيئة والإنسان. . الإنسان وبعدا الزمان والمكان.

٢ـ في العمران البشري والحضارة. . المعنى والنشأة والمظاهر والقوام وتفاعل الحضارات وازدهارها وأفولها وشجرة الحضارة.

٣ـ في حضارات الوطن العربي القديمة في ما بين النهرين ووادي النيل وجزيرة العرب وبلاد الشام والمغرب العربي.

٤ـ في حضارات الشرق القديمة في الصين والهند واليابان وفارس.

٥ـ في حضارات الغرب القديمة في اليونان وبلاد الروم.

٦ـ في الحضارة العربية الإسلامية.

٧ـ في حضارة الغرب الحديثة ومستقبل الحضارة الإنسانية.

٣ـ فيما يتعلق بمحتوى المقرر أهدافاً ومحتوىً ومراجعاً، نُعرب عن التقدير لما ورد فيه ونستذكر ما استحضرناه في هدف المقرر الرئيسي ونلاحظ أيضاً ما يلي في

مجال التأكيد على ما ورد.

أ- يكون من بين الأهداف في التعامل مع محتوى المقرر تبين الصلة بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارات الأخرى التي سبقتها أو زامنتها والتعرف على ما حدث من تأثير متبادل. وكذلك إدراك العلاقة بين الحضارات والوقوف أمام حقيقة تعددها، وتداول القيادة بينها وتبين خطأ الفكرة التي تشيع في أوساط حضارة الغرب عن «وحدانية الحضارة» واعتبار كل ما هو ليس غربياً «بربرياً همجياً»، والإحاطة بظاهرة العمران والحضارة والسنن التي تحكمها.

ب - يحرص في صياغة المحتوى على تحقيق توازن بين الموضوعات بحيث يوفى كل موضوع حقه ويخصص لموضوع الحضارة الإسلامية نصيب متميز يتحدث فيه عن الأطوار المختلفة التي مرت بها هذه الحضارة على مدى أربعة عشر قرناً. كما يخصص لحضارة الغرب الحديثة نصيب متميز ويعنى باستشراف مستقبل الحضارة الإنسانية وتشوفه لبلورة أفكار حول ما ينبغي عمله.

جـ - يحرص في تحديد أسماء المراجع على تعريف دارس المقرر بأسماء أمهات الكتب التي خلدت في أوساط مختلف الحضارات، وتحقيق توازن بين المراجع الأجنبية والمراجع العربية مع تسليط الأضواء على المؤلفات العربية المتميزة في موضوعات تتعلق بالحضارة، والجمع فيما يخص المراجع العربية بين القديم والحديث. ونضرب مثلاً على المؤلفات العربية المتميزة بكتاب قسطنطين زريق «في معركة الحضارة» على صعيد موضوع الحضارة، وكتاب جمال حمدان «استراتيجية الاستعمار والتحرير» على صعيد الجغرافيا والسياسة. وحبذا أن يتولى فريق عمل من كبار الأساتذة تحديد أسماء هذه المؤلفات.

٤- فيما يتعلق بالأساليب والأنشطة والتقويم، نؤكد على النقاط السبع الواردة بعد الإعراب عن التقدير لحسن بلورتها وصياغتها. وهي تترابط جميعها معاً. وقد لفتت النظر جميعها ومنها بخاصة «رجوع الطالب إلى نصوص مختارة..» (بند ٣)

و«تزويد الطالب ببعض الصور». (بند ٥) و«قيام الطالب بزيارات ميدانية» (بند ٦).

بقي أن أُعرب مرة أخرى عن تقديري البالغ للجهد الذي بُذل في وضع المقرر ولأسرة الجامعة مقروناً بأطيب التحيات وتمنيات التوفيق.

١٩٨٩/٩/١٩